

الأنساق المضمرة في رواية تصريح بضياح لسمير قسيمي
قراءة نقدية ثقافية

**The Implicit Patterns in Samir Kacimi's Declaration of Loss
Novel: A Cultural Critical Reading**

ط. د. رحيمة قادري⁽¹⁾ * أ. د. نعيمة بن عليّة⁽²⁾

⁽¹⁾⁽²⁾ مخبر قضايا الأدب المغاربي، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة، البويرة 10000،

الجزائر

r.kadri@univ-bouira.dz⁽¹⁾ n.benalia@univ-bouira.dz⁽²⁾

تاريخ الاستلام: 2025/08/28؛ تاريخ القبول: 2025/11/07؛ تاريخ النشر: 2025/12/30

ملخص:

تهدف الدراسة إلى استكشاف الأنساق المضمرة ذات البعد الثقافي في الرواية الجزائرية من خلال تحليل مقاطع سردية من رواية تصريح بضياح لسمير قسيمي. وقد تأسس هذا التحليل على مبادئ ومنطلقات النقد الثقافي كمقاربة حديثة في تفكيك النسق بين صورته الاجتماعية وتمثلاته الإبداعية في العمل الفني.

باعتداد منهج التحليل الثقافي، وبعد تقديم أسس نظرية موجزة تعريفا بالمقاربة النقدية الثقافية، ووصف مدونة المدروسة، ثم قراءة في نماذج من الرواية، خلصت الدراسة إلى أن سردية "تصريح بضياح" تحتشد فيها أنساقا ثقافية متعددة ذات بعد ديني واجتماعي وسياسي، وتتضمن خبايا مسكوت عنها من تناقضات المجتمع الجزائري، ومنها تحول التدين من تزكية للنفس إلى صورة للتمويه، وتحول السلطة من قيادة وتنظيم إلى هيمنة وغطرسة، وأيضا تحول التوازن البيولوجي لثنائية الذكر والمؤنث إلى صور أخرى تنزاح عن الفطرة وعن أصالة المجتمع.

كلمات مفتاحية: نقد ثقافي؛ أنساق مضمرة؛ رواية تصريح بضياح؛ سمير قسيبي.

Abstract:

The present study aims to explore the implicit culturally grounded patterns in the Algerian novel through an analysis of narrative extracts from Samir Kacimi's Declaration of Loss. This analysis is based on the principles of cultural criticism to deconstruct the pattern between social realities and their creative representations in artistic works. Using the cultural analysis method, and after presenting a brief theoretical foundations that introduce the cultural critical approach and describing the studied corpus, followed by a reading of the novel's models, the study concluded that the narrative of "Declaration of Loss" includes multiple cultural patterns of religious, social, and political dimensions. It also incorporated hidden and silenced aspects of Algerian society's contradictions, including the transformation of religiosity from self-purification into a tool of deception, the transformation of authority from leadership and organisation into dominance and arrogance, and the shift of the biological balance of the masculine-feminine duality into other forms that deviate from both nature and the authenticity of society.

Keywords: Cultural Criticism; Implicit Patterns; Declaration of Loss Novel; Samir Kacimi.

المقدمة:

إذا كانت الرواية كجنس سردي معاصر تنحو إلى تصوير مختلف قضايا المجتمع وأنماطه، الإيجابية منها والسلبية من خلال محاكاة الوقائع والتمثلات، وتجسيدها في تشكيلات فنية تتصل بالأحداث والشخصيات، والرمزية والتضمين، فإنّ الاتجاه الثقافي بآلياته النقدية يعدّ من أنجع المفاتيح في كشف مضامينها ومضمراتها؛ وذلك من منطلق شمولية الثقافة، وما تشترك به مع مقومات المجتمع السياسية، والدينية، والاجتماعية، والتي تتصل بالهوية والتاريخ واللغة والدين.

من هذا المنطلق، نعمل في هذه الورقة البحثية إلى تحليل رواية تصريح بضياح للكاتب

الجزائري سمير قسيبي ثقافيا، وذلك بما تحمله من أنساق مضمرة، اخترق بها الروائي فضاء السرد في نقد سلوكات المجتمع، وتجاوز تابوهاتة إلى لغة سردية تجمع بين الإبداع والتضمين، والجرأة والتصريح تارة أخرى. وبذلك نطرح التساؤلات الآتية :

- ما مفهوم النقد الثقافي؟ وما آلياته المعاصرة في استكشاف الأنساق المضمرة في العمل الفني؟
- ما تمثيلات الأنساق الثقافية المضمرة في رواية تصريح بضياح لسمير قسيبي؟
- إلى أي مدى يكشف تفكيك اللغة السردية للرواية عن الأنساق والتابوهات المتصلة بالمركزية الثقافية وثوابت المجتمع؟

إجابة لتلك التساؤلات، تأسست هذه المحاولة وفق أسس النقد الثقافي، وذلك بتحليل ووصف مضمون البنى السردية والأنساق الخفية بين ثنايا النص، وتتبع التابو المحرم (السياسة - الدين - الجنس)، وجدلية كل من (المركز/ الهامش)، (المتسلط/ المقهور)، (الذكورة/ الأنوثة).

النقد الثقافي والأنساق المضمرة: أسس نظرية

مفهوم النقد الثقافي

يعدّ النقد الثقافي اتجاها نقديا جديدا، واكب التغيرات ما بعد الحداثة؛ فهو يشتغل على كشف وتعرية الأنساق المختبئة وراء النسق الظاهري، مستأنسا بالتوغل في بعض الجوانب الجمالية والرمزية للنصوص.

تتعدد تعريفات النقد الثقافي بين ثنايا مؤلفاته. لكننا نقتصر على تعريفين منها:

- يعرفه رائده الغدامي بأنه "فرع من فروع النقد النصوي العام، ومن ثم؛ فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية)، معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه (الثقافي الجمعي)"⁽¹⁾.

يرى صاحب التعريف أن هذا النقد هو ممارسة جديدة بديلة للنقد الأدبي، وأكثر

(1) عبد الله الغدامي : النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي - بيروت، 2005، ص84، 83.

شمولية من حيث الثقافة؛ فهو يتجاوز الأحكام السطحية إلى كشف الأنساق المتخفية وراء النسق الجمالي. كما أنه يفتح على مختلف النصوص، سواء كانت رسمية أم شعبية.

- يعرفه الناقد جميل حمداوي بأنه "الذي يدرس الأدب الفني والجمالي باعتباره ظاهرة مضمرة؛ وتعبير آخر، هو ربط الأدب بسياقه الثقافي غير المعلن"⁽¹⁾. من هنا، فهو ينظر إلى النصوص على «أنها أنساق ثقافية مضمرة تعكس مجموعة من السياقات الثقافية التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والقيم الحضارية والإنسانية»⁽²⁾.

يتضح من التعريف السابق أن النقد الثقافي يبحث في مضمير النصوص لا في ظاهرها. وينطلق من النص نحو السياق الخارجي (الثقافة). كما يتمركز في قراءته على المرجعيات غير المحددة بمجال معين.

مفهوم الأنساق المضمرة

النسق المضمير مفهوم مركزي في النقد الثقافي؛ حيث كل نسق جمالي أو بلاغي يخفي أنساقا ثقافية أخرى مضمرة بين ثنايا النصوص الأدبية. ومن هنا، يتضح نسقين متعارضين؛ أي هناك نسق ظاهر يقول شيئا، ونسق مضمير غير معلن يقول شيئا آخر. وهذا المضمير هو الذي يسمى بالنسق الثقافي⁽³⁾.

يحصّر الغدامي النسق في وظيفته وليس في وجود المجرد. وللنسق شروطا محددة إذا ما توافرت فيه، تحققت الدلالة النسقية له ومنها :

- النسق من حيث هو دلالة مضمرة، فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من المؤلف، ولكنها منكتبة ومنغرس في الخطاب.
- قراءة النصوص والأنساق بوصفها حالة ثقافية أو حادثة ثقافية.

(1) جميل حمداوي : مقالة النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، متاح على موقع : <https://www.diwanalarab.com> 2025/08/21.

(2) جميل حمداوي : نفس الموقع.

(3) ينظر : جميل حمداوي، نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الأنساق المتعددة)، ط1، المغرب، 2006، ص17.

- النسق ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة، ولذا فهو خفي ومضمّر.
- النسق الثقافي هو نسق تاريخي راسخ، وله تأثير الهيمنة.
- وجود نسقين متعارضين في نص واحد، أحدهما ظاهر والآخر مضمّر⁽¹⁾.

التعريف بمدونة الدراسة

تعد رواية تصريح بضياح لسمير قسيبي مرآة تعكس الواقع الاجتماعي والثقافي بكل تعقيداته؛ حيث يتخذ صاحبها من الشخصية المحورية كسارد يروي الأحداث المتشعبة، ويرصد تيمات المتنوعة. وقد اعتمد على المحكي العجائبي كبؤرة سردية لتعرية الخبايا والمسكوت عنه في مجتمعاتنا. كما عمد إلى فضح العيوب النسقية، وتحريك الوعي الجمعي لإعادة التفكير في الأمثلة التاريخية والدينية الاجتماعية الصنمية المغروسة في الثقافة والوعي الجمعي.

يتخذ قسيبي من الشخصية المحورية التي تعاني شرخا هوياتيا راويا للأحداث، ويصور بها نماذج بشرية متباينة تعرضوا لمختلف صنوف القهر والإذلال؛ فهو ينطلق من أزمة فردية (سجن البطل) ليعبر عن قضية جماعية تكشف تناقضات المجتمع، ويصور الواقع المرير والمزري الذي يعيش فيه المواطن الجزائري.

فالرواية نموذج سردي مميز، يجسد تواشجا بين نص محكي على لسان الشخصية المحورية وتوقعات نبوءة العجوز التي تكشف عن بُنى فكرية واجتماعية عميقة يطرح من خلالها السارد مجموعة من القضايا مثل: القدر، الدين، الجنس، السلطة. يقدم السرد من خلال هذا التمازج فيها رؤيا عميقة عن معاناة الفرد الجزائري في سياقاتٍ قمعية، ويعري الأنساق الثقافية المترسّخة في النص الروائي.

الأنساق المضمرة في رواية تصريح بضياح لسمير قسيبي

الأنساق الدينية ذات البعد الثقافي في الرواية

معلوم أنّ القيم الدينية هي المقوم الأساسي للفرد والمجتمع، وأنّ الممارسة التعبدية أو التفكير الديني تختلف حسب تدين الفرد. لذلك كان الفرق بين الدين والتدين كامنا في أنّ:

(1) عبد الله الغدامي، النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 78، 79.

"الدين بوصفه وحيا مُنزها وكاملا، وعصيا على نحت الزمان والمكان. فيما الفكر والممارسة تدخل عليهما المؤثرات البشرية، التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية... إلخ، فتجعلهما عرضة للتبدل والتغيير والخطأ والنقد"⁽¹⁾. لذلك كان التدين خاضعا للاختيارات والاجتهادات الذاتية، وتحكمه المرجعيات السياسية والاجتماعية، وحتى النزوات النفسية لذلك قد يضمخ خلفه الكثير من الأنساق. وقد تجلت في الرواية على الصور الآتية:

1- نسق القهر والقدرية:

يكشف النسق السردى عن نسق في نبوءة شخصية العجوز؛ حيث تنبأت بمصائر مأساوية عن عائلة البطل (الظالم، الأعمى، الغريق، العالم). وهذه النبوءة تشبه التراجيديا الإغريقية في الرؤية نحو القدر والمصير. ولا شك أن النسق الخفي والأزلي لمثل هذه الممارسات للنفس البشرية، هو حب معرفة الغيب والمستقبل، وتعجل الأمور.

يسرد السارد كيف تتجلى النبوءة مع القدرية؛ فيقول في المقطعين: "أتذكر سعادة أمي حين حكّت لي أول مرة حكاية المرأة العجوز، أتذكر دموعها حين طردنا أخي، أتذكر نحيبها عندما علمت بمقتل مناد، أتذكر الظلمة التي غرقت فيها عيناها بعد عى إبراهيم، فأسألني أي غاية لهكذا حياة؟ ... أحقا خياراتنا هي التي تصنع الفرق بين ما كناه وما نحن عليه؟ هل حقا نحن من اختار مصائرنا؟"⁽²⁾. وهذا جدل القدرية. وفي المقطع الثاني: "لقد كان كلامنا لحظتها نهاية لقصة امرأة عجوز جعلت حياتي وحياة أمي تدور حول فلکها، في محاولة لفهم شيفرات القدر الذي شاءت تفاصيله أن تتطابق مع ما اعتبرناه نبوءة"⁽³⁾. وهذا قلق الإنسان في البحث عن إجابة تلك الأسئلة.

يتضح أن البطل يؤمن بنبوءة العجوز المزيفة؛ فهو مستسلم لتوقعاتها. وقد ترسخت هذه الفكرة في نفسه بعد أن تحقق شيئا منها. خاصة أن الجوانب النفسية تدعم هذا، وذلك أن نبوءة التوقعات إذا ما صُرح بها مطلقا، تؤثر الألفة التلقائية (reciving habit)

(1) حسام مطر: نظرية للتدين في اختبارات الدين بوصفه تجربة وهوية، مجلة جامعة المعارف - لبنان، 2023، ع9، ص174.

(2) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياح، ط1، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة- الجزائر، 2010، ص102.

(3) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياح، ص154.

إذا تحقق بعضها ولو بعد حين⁽¹⁾.

منا هنا، تبرز علاقة جدلية بين إرادة الاختيار والمصير المقدر. وقد اتخذ السارد من النبوءة معادلا موضوعيا في كون مصير العائلة هو مصير الوطن. وهذا مصدره المرجعية الدينية لمفهوم القدر. لكنه يحيلنا إلى نسق مُضمّر استخدمه الروائي في تصوير حال المجتمع العربي والتخلف مع الاستسلام لهذا القدر دون البحث والسعي نحو التغيير. وربما كان ذلك نتيجة التراكم كما أشار حجازي: "إن الاستسلام للقدرية يكون بسبب تعرض الإنسان إلى قهر طويل، واستفحال في المصائب واتصال بالمآسي"⁽²⁾.

2- نسق التدين الزائف:

تتحول العبادة عند البعض إلى ممارسة روتينية، فمدعي التدين، يرى في الدين التزاما ظاهريا بالعبادات كالصلاة والحجاب دون الجوانب الأخرى. وبهذا المنظور القاصر عنده، تكون الصلاة مجرد الأداء بالحركات الظاهرية بعيد عن جوهرها كشعور روعي.

يسرد السارد موقفا لشابين مسجونين يمرسان الصلاة كطقس شكلي؛ أحدهما يتعاطى المخدرات يؤم غيره، والآخر غير سوي السلوك⁽³⁾. يتضح في المقطع السردى التعارض والتناقض بين مظهر الشاب وبين جوهر أفعاله، وكيف تفقد الصلاة قداستها حين تكون مجرد حركات متحجرة، ويتحول العبادة إلى مجرد طقوس يخدع بها من حوله. ويتحول الشاب من مجرم ومرتكب للمحرمات إلى إمام يشع نورا. وهنا ندرك النسق المضمّر من التدين الزائف والنفاق الاجتماعي.

ومن تجليات هذا النسق، المفارقة العجيبة بين الفكر الديني للبطل وسلوكه المندس؛ حيث يحتسي الخمر، ويتردد على الملاهي. ويرى أن مفهوم الدين - حسب رأيه - هو تدين الروح من خلال توغله في البعد الصوفي. يسرد السارد: "يا الهي ما الذي اقترفته حتى تجزييني بعد التهم حتى تعاقبني بعدلهم؟ .. ألأني لم أقيم لك صلاة قط؟ أم لأنني لم أصم

(1) ينظر: لخضر بوخال، النقد الثقافي محاضرات وتطبيقات، دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة جيجل - الجزائر -، 2022، ص 117.

(2) ينظر: حجازي مصطفى، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ط 9، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - المغرب -، 2005، ص 162.

(3) سمير قسيبي: رواية تصريح بضيا، ص 54.

يوماً؟ .. ربما يا إلهي لم أصل ولم أصم، ولكنني بلغت ما أمرتُنا به، خشيتك، أحبتك حتى صرّحتُ مني كما تحب، فثملت بحبك يا إلهي وصحوت بخشيتك، فما جدوى تلك الحركات؟ وما غاية ذلك الجوع؟⁽¹⁾.

نستشف من المقطع السردى أنّ البطل يتقمص الفكر الصوفي، ويتساءل هل العقاب الدنيوي الذي حل به نتيجة تقصيره في العبادات كالصلاة والصيام. ويؤكد أن محبته وخشيته من الله يثبتان أنه عبد مخلص. بهذا فهو ينكر التدين الزائف وتقديس الشعائر الدينية شكلياً بعيداً عن الإيمان الحقيقي؛ ويبحث عن جوهر العبادة ومعانها الباطنية في علاقته مع الخالق فقط. وهذا مبدأ صوفي كما يبين الناقد سمير الخليل: "إن إحدى تعاليم المتصوفة في نبذ المظهر والتمركز حول الجوهر ويمثل ذلك ميلهم إلى الباطن المستنير ضد المظهر العياني الذي يخفي علّة وانحرافاً داخلية"⁽²⁾. ولا شك أن النسق الذي يدعو إلى هذا التفكير، هو كراهية الإنسان لكل ما قد يراه مكلفاً ومتعباً، أو مقيداً لنزواته وشهواته.

الأنساق السياسية ذات البعد الثقافي في الرواية

رواية تصريح بضياح مشحونة بمواقف السارد الساخرة من السلطة؛ حيث تعكس السخرية صرخة الألم والمرارة التي تجرّعها المثقف في وطن تسود فيه الطبقية، وتغيب فيه الحقوق. وربما ساق نمطية السرد على الازدراء؛ لأن "السخرية باعتبارها نوعاً من الرؤية إلى العالم، لا تتستر على النقص وتداريه؛ بل هي تفضح الاعوجاج وترغمه على الظهور بصراحة ... فالفضح كآلية من آليات إنتاج السخرية والإبحار عبر عاهات الإنسان ونزواته ومتاهاته الشخصية"⁽³⁾. ويمكن أن نمثل لذلك بمظهرين كالآتي :

1- المفارقة الساخرة بين التسلط والبؤس :

تشكل العلاقة بين السلطة (الأنظمة الحاكمة) والمواطن ضمن علاقة جدلية تفرض

(1) سمير قسيبي : نفس المصدر، ص 65.

(2) سمير الخليل : الأنساق الثقافية في الخطاب الصوفي كسر النمط الكتابي والعنى الثقافي، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، 2024، ص 193.

(3) سميرة الكنوسي : بلاغة السخرية في المثل الشعبي المغربي، متاح على موقع: https://www.aljabriabed.net/n35_09samlra.htm. تاريخ: 2025/07/27.

القمع المادي والمعنوي؛ فهي بذلك تجسد فكرة السيد والعبد. خاصة أنّ السلطة تسعى إلى ترسيخ هيمنتها، ودونية واستلاب المواطن. ولقد مثل السارد لهذه الثنائية من خلال المفارقة الساخرة ليكشف المعنى الخفي. ومنه ما أورده: "هؤلاء الجالسون على قممهم، هناك على كراسيهم الفخمة... هؤلاء الذين يرسمون حيوات أمثالنا من الأقزام القادمين ليذهبوا، يلعبون بمصائرنا على لوحة شطرنج ببيادقها مصنوعة من عظامنا، آلهة بكل ما يعنيه لنا وهم التآله وبكل ما لا يعنيه لهم حلم الحرية... لنا آلهة لكل شيء، للحديد، السكر، للماء، للزيت، وحتى للموت، هكذا أرادونا وهكذا، ربما، نحب أن نكون مجرد أقزام ننتظر قراراتهم، قضاءهم، وقدرهم"⁽¹⁾.

يصور المقطع السردى السلطة ككائن متعالي ومسيطر في كافة جوانب الحياة، بينما يشبه المواطن بالقرمز مسلوب الإرادة. وهذا التباين يزيد من البعد الساخر؛ لأنّ التقابل والتعارض بين تضخيم السلطة وتقزيم المواطن. يكشف عن النسق المستتر في العلاقة الاستعبادية، وربما حب التملك والسيطرة، وكذلك الرضا به عند الآخر.

يتّخذ الروائي من لوحة الشطرنج تمثيلاً سردياً يشير به إلى المواطن التابع ومحدود الحركة كالبيدق في اللعبة؛ فهو أداة في يد السلطة. وهذا يعكس نظاماً قمعياً يخمد أي بادرة للمقاومة أو التمرد من جهة. ويعكس أن الذات تقبل بدونية والاستلاب من جهة ثانية، وذلك ربما نتيجة تخدير الوعي الجمعي من خلال القهر السياسي.

2- السخرية التهمكية (الخلقي والخلقي):

يقدم السارد بأسلوب ساخر التوصيف الخارجي لشخصية الشرطي المكش، ويعري الوجه الآخر للسلطة الاستبدادية والقمعية، في مقابل ظلم ومعاناة السارد المثقف. يكمن التشابه بين الرسم الكاريكاتوري والوصف الساخر في الجوهر الوظيفي؛ فكلاهما يفضح المستور ويكشف المسكوت عنه، فالكاريكاتير "هو فن تشويه الصورة لخلق لوحة أكثر حقيقة"⁽²⁾.

(1) سمير قسيبي: رواية تصرّح بضياغ، ص22.

(2) إبراهيم آيت المكي: الصورة وإنتاج المعنى بحث في سيميائيات الأنساق البصرية، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2023، ص167.

يورد السارد مشهدا حواريا بين الشرطي المكش والراوي المثقف: "قال المكش وهو يشير أسفل آخر ورقة من رزمة أوراق ... أخذتها وحاولت استبيان ما فيها، وما كدت أفعل حتى كدر صوت المكش صفاء تركيزي، فرفعت رأسي وإذ به يسحب الرزمة من بين يدي حتى خلتها تمزقت ... كان يصرخ فيّ، والبصاق يتطاير من فمه. - ماذا تفعل؟، وقع فحسب. قال ذلك وهو يبخلق في بعينين جاحظتين، زادهما غضبه اتساعا، فكان بوجهه المستدير المكتنز دهنا وشحما، وشكل جسمه غير المتجانس، يجسد الدليل القاطع أن أصل الإنسان يعود إلى القردة"⁽¹⁾.

يتضح من المثال التوصيف الساخر للشرطي؛ حيث شوه صورته الخلقية بالقبح، وذلك في كشف الكوامن المضمرة لشخصيته التي تتميز بالخبت والظلم والاستبداد؛ فالمقطع يجمع بين القبح الخُلقي الظاهر والقبح الخُلقي المبطّن. وقد بلغت السخرية درجة تشبيهه بالحيوان (القرد)، فهو يسعى من خلال هذا التشبيه نقله من الصورة الأدمية إلى صورة حيوانية ليجسد عدم الاحترام والهمجية في تصرفه ضده. يكشف الراوي من خلال هذا الخطاب التهكمي وما تخلله من توصيف ساخر أزمة الاستبداد والخطورة السلطة؛ أين يغيب الحق، ويلبس بالباطل، ويتفشى الفساد، ويحل الظلم والقهر.

الأنساق الاجتماعية ذات البعد الثقافي في الرواية :

نقتصر في هذا الجزء على ثنائية محورية تشكل كثيرا من مظاهر اجتماعية ذات بعد ثقافي وفكري، اختلفت حولها الرؤى، وانزاحت معها كثير من القيود التي تضرر أنساقا تتوارى خلفها انتكاسة المجتمع عن هويته وموروثه. وتتلخص هذه الأنساق فيما يعترى ثنائية الذكر والأنثى من سمات. ومنها الهيمنة الذكورية، الانزياح عن التوازن البيولوجي إلى صور المثلية الجنسية.

1- الهيمنة الذكورية وصورة الأنثى :

تتناغم التصورات في المخيلة الجماعية لثقافة الفحل مع تراكمات أخرى في تكريس التباين بين الذكر والأنثى؛ حيث يضمّر هذا التّصور منح صفات الرفعة والقوة والسيطرة للرجل، مقابل تهميش المرأة في دوائر النمطية الغرائزية، أو كجسد سلبي مجرد تابع له.

(1) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياح، ص 28، 29.

لذلك ينطوي النسق في الرواية على حضور المرأة جسدا وأداة جنسانية بشكل مركزي. وهذا طبعا، يفصح عن دونية المنظور للمرأة واختزالها في هذين البعدين دون فضائلها الأخرى. كما تحيلنا الثنائية إلى إشكالية الهيمنة الذكورية المبنية على التناقض بين لذة جسد الأنثى (المتعة الجنسية)، واحتقاره على حجة اعتباره عورة. ومن خبايا الهيمنة الذكورية نذكر ما يأتي:

1-1- عذرية المرأة وفحولة الرجل :

يختزل التصور الذكوري في المجتمع - حسب الرواية - كيان المرأة في الجسد والجنسانية؛ لذا يضع لاحتواء جسدها محدّدات خاصة يرى في الخروج عنها محظورا خطيرا. وصحيح أنّ "الحركية الحرة للجسم جنسيا أساس معنى العيب، وضبطها المقنن أساس معنى الشرف"⁽¹⁾، إلا أنّ الرجل بهذا، اتخذ صفة الرقيب والحسيب، وفرض تصورات لجسد الأنثى، وجردها من ثنائية الشهوة نحو اتجاه واحد لصالحه. وقد صور المرأة بمفهوم الخطيئة لا غير، وهي المسؤولة عن الشرف والعار لوحدها.

يطرح السارد قضية انتهاك المحرم الديني والعرفي في ممارسة الجنس بين الذكر والأنثى بنوع من الإجحاف في المقطع السردى الآتي: "كثيرا ما شعرت بالأسف عليها ... لكن الرائحة في مجتمع كهذا لا تصدر إلا منها ... فحين تحركها الشهوة، تصبح فاسدة، ثم سرعان ما تنزل في دركات الوصف المشين: عاهر، ماجنة، مومس ... أما نحن، فنكون فقط رجالا؛ فالعيب ليس في الرجل مثلما كانت تقول بما عيشة، لا شيء يلطخ ثيابنا، سمعنا؛ بل غالبا ما نصعد درجات الوصف الذكوري حين تكثر نزواتنا الجنسية لنصير فحولا"⁽²⁾.

تتجلى من المقطع السردى نظرة المجتمع المجحفة تجاه المرأة، وإفلات الرجل من عواقب ارتكابهما نفس الجرم (الفاحشة)؛ إذ يبدو الراوي متعاطفا ظاهريا مع المرأة حين تستسلم لرغباتها الجنسية، لكنه يضمّر النسق الذكوري لحصر قيمة الأنثى في عذريتها، وينتصر للرجل بتوطيد المعادلة غير السوية (المرأة = العيب، الرجل = الفحولة).

(1) مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط9، 2005، ص215.

(2) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياع، ص79.

من هنا، فإنّ النسقية الذكورية للمجتمع تتساهل مع الذكر في ممارسة الجنس وإشباع رغباته. بالمقابل، تحظر بوح الأنثى برغباتها، ولو كانت مشروعة مخافة مسؤولية الشرف؛ فميول الأنثى بغرائزها، يجني عليها نعوتا بأقبح الأوصاف والشتائم؛ عاهرة، ماجنة. وما يزيد من تكريس هذه الهيمنة أحيانا، سلوك بعض النساء أنفسهن، كالجدة "يما عيشة" في الرواية، والتي مارست مسحا تبريريا لسلوكيات البطل، في حين حملت المرأة وزر العلاقة، ولم تتسامح معها في الخطيئة.

يظلّ هذا الانحياز الاجتماعي للمنطق الذكوري بأبعاده وإسقاطاته الثقافية سائدا مادام المجتمع يرى بما يسميه الناقد بنكراد ب"العين المذكرة"، وما يتصل به من نزوات حول جسد الأنثى، فحين يصبح العالم "مذكرا"، فإن العين التي تقدمه تكون محكومة بقوانين وسنن السجل الذكوري⁽¹⁾.

2-1- الأنثى أداة لإمتاع الذكر:

غالبا ما تختزل المجتمعات ذات المنظور الذكوري دور المرأة في إشباع رغبات الرجل؛ فتراها متعة جسدية له. وبذلك يتم وأدّ كيانها الإنساني سردا وحقيقة. فتصوير المرأة كأداة للمتعة من الجانب الجسدي للرغبة الذكورية، يحصر الأنثى في الوظيفة البيولوجية والجنسية بعيدا عن المشاعر والجوانب العاطفية الأخرى. وبذلك حسب بحراوي: "ينتقل مركز الانجذاب فيها من الجمال المنظور إليه كقيمة إنسانية، إلى محض نظرة إيروسية تقوم على الجسد وإغراءاته الجنسية"⁽²⁾. فبالتالي لا تكون الأنثى إلا أداة لإمتاع الرجل وإسعاده، وتفريغ شهوته الذكورية.

يؤكد السارد هذا الاتجاه الترجسي للذكر في المقطع السردى: "فمثل أي زير نساء، لم أكن مهتما بغير الجنس دون أن أهتم بهن فعلا، فما أن أنتهي من واحدة حتى انتقل إلى الأخرى، وكأنهن لا يصلحن إلا للمضاجعة، آلات جنس لا غير"⁽³⁾. يشتمل هذا المقطع على نسق مستتر، يتمثل في مفاخرة البطل (الراوي) بنفسه وبقدراته الجنسية؛ حيث استعمل

(1) ينظر : سعيد بنكراد، النص السردى نحو سيميائيات للإيدلوجيا، دار الأمان، المغرب، 1996، متاح على موقع <http://saidbengrad.free.fr/ouv/tn/chap3.htm> ، 17 / 07 / 2025.

(2) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990، ص277.

(3) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياح، ص141.

لفظة "زير نساء" في سياق تفاخري يعتمد إلى تكريس الهيمنة الذكورية (الفحولة)، واستغلال للأنثى. فمغزى الجنس عنده، مجرد احتياج. والذي مصدره ضغط جنسي عارم، يتطلب التصريف دون ارتباط بأي موضوع. فهنا تتحول الرغبة الجنسية إلى غريزة حيوانية، ومجرد حاجة مفرغة من عواطف إنسانية⁽¹⁾.

هذه النظرة الفحولية والتصورات الجندرية التقليدية، ترى أنَّ الذكر هو الأصل وصاحب الرفعة. بينما الأنثى فرع تابع له. وعليه تكون العلاقة مبنية على مفهوم التبعية والخضوع. وتصبح المتعة حصريا للذكر لتلبية الأنثى⁽²⁾. وبذلك ترسخ بنية نسقية تقوم على نظرة أنانية ودونية للمرأة، واستيلاء قيمتها في العلاقة الجنسية، وعلى اعتبارها مجرد وعاء للذكر، واستباحة جسدها في إشباع نزواته.

1-3- الأنثى الخائنة وتقويض سلطة الذكر:

تتضمن الرواية أنساقا تكشف التهم الجنسي الأنثوي، وهذا النسق متوارث في الثقافة العربية وفي اللاوعي الذكوري، فقد كان ولا يزال تصوير الأنثى والتغزل بها بما تتصف به من نهم جنسي، وحاجة للجسد⁽³⁾. وصورة هذا في الرواية، تتمثل في شخصية زوجة "فوزي" الذي يصرح: "بأن زوجته اكتشفت أن عمله هذا يمنحها ما تحب، وفي المقابل يسلب منها أفضل ما جبلت عليه (الجنس) فاتخذت شابا يصغرها بعشر سنوات عشيقا لها، وقارنت بين فحولتهما ... حينها فقد قدرة على الكلام ... كان يمكن أن يجد أي شيء لو كان اعترافها بغرض التوبة والندم، ولكنه كان اعترافا للتبجح، وكأنها كانت تعلم مسبقا ألا حيلة له غير الصمت"⁽⁴⁾.

يفاجئ المقطع القارئ ويكسر أفق توقعه؛ لأن قصص خيانة الزوجة في العادة يكون مصيرها القتل تحت مبرر جريمة الشرف، لذا يعدّ تصرف هذا الزوج غريبا وشاذا عن

(1) ينظر: رايك ثيودور، الدافع الجنسي، ثائر ذيب، ط1، دار الحوار اللاذقية، سورية، 1992، ص21.

(2) ينظر: آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية -دراسة جندرية -، ط1، دار المدار الإسلامي، 2007، ص682.

(3) ينظر: لهوة الوليد، خطاب الأنساق الثقافية في رواية قواعد العشق الأربعون لإليف شافاق، ط1، دار الأيام للنشر وتوزيع، عمان، 2018، ص66.

(4) - سمير قسيبي: رواية تصريح بضباع، ص125-127.

السلوك المعتاد للرجل العربي الغيور. وهذا يتبادر لذهن القارئ عدة تساؤلات: أين نخوة الزوج؟ أين قيمة شرفه وعرضه؟ خاصة أنّ الشخصية الروائية تنتمي إلى مجتمع محافظ قلّ ما يتسامح مع هذا نوع من الجرم الأخلاقي والديني.

ينبثق من التّموذج معادلة نسقية معاكسة تجسد كيد الأنثى وعجز وضعف الرجل أمامها من جهة. ومن جهة أخرى، يترسخ نسق المرأة بأنها كائن شبقى تستسلم لغرائزها الجنسية؛ حيث يصور الراوي الزوج فوزي على صورة رجل صالح يحسن معاملتها ويحبها بما ينفي مبرر الخيانة. وهذا يثبت فرضية أنّ الرغبة والنهم الجنسي لدى المرأة لصيق بطبعها. وهذه الفكرة تعود بنا الى قصة سيدنا يوسف عليه السلام وامرأة العزيز "زوليخة"، وموقف الإغراء والحضور الشّهواني لها أمام عفة يوسف عليه السلام.

2- نسق المثلية الجنسية:

كان ولوج الروائي لعوالم المثلية ربما تزامنا مع التداعيات الفكرية المعاصرة بشأنها. وهي من المسكوت عنه. وقد رصد الجانب الخفي والمغيّب لتابو المثلية بشقيها. وجاءت المثلية بمضامين رمزية مقترنة بالعنف والتسلط، وفعل تعويضي وانتهاك للنظام البيولوجي. لذلك كانت "الرغبة المثلية متشابكة في صراع ديكالكتيكي بين فكرتين متعارضتين؛ فكرة الفحولة والتسلط، وفكرة الأنوثة والحاجة إلى الحنان"⁽¹⁾. وقد تجلت المثلية في الرواية على نمطين:

1-2- الرجل المتأنت وخضاء الذكورة:

تعد قضية تشبه الذكر بصفات أنثوية نسقا مضادا لثقافة الفحل؛ فهو يؤدي إلى اضطراب الأدوار الجندرية، وتصدع النظام البيولوجي الثنائي. يقول السارد في وصف الشاب المتأنت: "كان هناك شابا بدا في أواخر العشرينات من عمره... يرتدي سروال جينز أسودا، ضيقا بشكل مخيف، قميصا حريريا فتح أزواره العليا، كاشفا عن صدر مشدود لا شعر فيه، كما كان يضع فيما يبدو كحلا بالغ في كميته. ما إن مررنا قربه حتى بدأ البعض

(1) مي غصوب وإيما سنكليريوب: الرجولة المتخيلة الهوية الذكورية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث، ط1، دار الساقى بيروت، لبنان، 2002، ص199.

في معاكسته وهو يبتسم ويتلوى، والحراس المرافقين لنا يتهايمسون ويضحكون⁽¹⁾.

يرتكز الوصف الذي عرضه السارد للشخصية على محاكاة الصفات الأنثوية. ويعلن بذلك عن هويته الجديدة، فهو يطمس الملامح الرجولية؛ ف"الرجل يوصف بالشذوذ الجنسي ليس فقط نتيجة السلوك الجنسي الشاذ الذي يمارسه، ولكن نتيجة أية علامة من علامات السلوك الذي لا يتفق مع النمط الرجولي"⁽²⁾. ومنها أنه كان يرتدي سروالا ضيقا لإبراز جسده، ويتبنى دورا جنديا أنثويا مخالفا لجنسه البيولوجي (الذكر). وهذا التصرف طبعاً في المجتمع المحافظ، يجلب العار والاحتقار؛ لذلك كان هذا المثلي أضحوكة بالنسبة للمساجين، وتسلية لهم. وهنا يتجلى أثر البيئة أو محل السجن في ترسيخ النسق المضاد.

2-2- المثلية بين التسلط والحب :

تعد المثلية كسراً لتابو اجتماعي وقضية مسكوت عنها في العلاقات الجنسية في مجتمع محافظ؛ حيث تأتي مقترنة بالقهر والحاجة إلى الارتباط العاطفي. لهذا يطرح الروائي المثلية الجنسية كبديل عند أخت السارد (حمامة) التي اتخذت منها متنفساً مؤقتاً بعد أن تعرضت اغتصاب وحشي. فعلاقتها مع المرأة تنشأ كبديل وتعويض عن علاقتها بالرجل. وعليه يكون هذا مجرد رد فعل لنفورها من الشريك الفطري، أو انتقام من الفحل بطريقة مضادة أن تتقمص دوره. وتجسد هذا في الرواية من خلال محادثة بين حمامة والسارد البطل، وهي تحكي يومياتها في السجن : "عن السجينة التي مارست الحب معها وكيف أحببت ذلك"⁽³⁾.

نستدل من المقطع أن الاعتداء الجنسي الذي تعرضت له حمامة من طرف أبناء عمها، وما تركه من ندوب ظاهرة وآثار نفسية متأزمة باطنية، قد زعزع كيائها، ووصمت بجرح يلازمها مدى الحياة. وبالتالي فإن التأزم النفسي الذي تعرضت له حمامة أدى إلى ميلها إلى الجنس المماثل، كونها خرجت من تجربة اغتصاب وانتهاك لجسدها، ونفورها من الرجل. وهذا ما يؤكد الباحثون: "تتأذى نفسية المرأة وتتعدد ردود أفعالها الناجمة عن

(1) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياع، ص 113.

(2) أحمد علواني : الجسد بين المتخيل السرد والنسق الثقافي، ط 1، دار الناغية للنشر والتوزيع، طنطا- سبواي، 2019، ص 75.

(3) سمير قسيبي: رواية تصريح بضياع، ص 90.

الحادثة، والتي تتمثل بالأساس في تحويلها إلى عاهرة أو امرأة شاذة جنسيا، أو مختلة عقليا⁽¹⁾.

ينقل السارد مشهدا آخرًا للاعتداء الجنسي على الطفل مناد يقول: "جردوه من ملابسه وجعلوه يصحو، ثم قاموا باغتصابه واحدا تلو الآخر، تماما مثلما فعلوا بحمامة ... وعندما انتهوا وضعوا جثة قتيلهم فوق ظهره وربطوهما معا، ودفعوهما إلى الوادي"⁽²⁾.

يعد الاعتداء جريمة عنف، وليس جريمة جنسانية فحسب، لأن ممارسة لا يكون في العادة رغبة في المتعة؛ بل يكون بمبرر الهيمنة الذكورية والشعور بالسيطرة، وهو ما جعل مناد عاجزا حين تحويل إلى وضع أنثوي. ولا شك أن هذا هو ذروة المحذور في الحالة الطبيعية.

خاتمة:

ما يمكن إجماله من نتائج وحوصله أنّ رواية تصريح بضياح لسمير قسيبي تضمّر كثيرا من الأنساق الثقافية، المتواشجة من تشكيلات سردية، مسكوت عنها من تناقضات المجتمع الجزائري وخبائمه. ويمكن تفصيل ما توصلنا إليه من نتائج في النقاط الآتية:

- يكشف النقد الثقافي للرواية عن خبايا تتوارى مع ادعاء الإنسان أو المجتمع المثالية المزيّفة؛ فيستنطق بذلك العمل الأدبي من منظور معاكس للجمالية؛ حيث يضمّر كلّ نسق خبيئة للإنسان أو الفرد في المجتمع.

- تنوعت الأنساق في الرواية، وأخذت منحنى يتجاوز التصنيف المألوف لمستويات المجتمع من جانب ديني واجتماعي وسياسي إلى ما طرأ عليها من جدلية فكرية وثقافية، تتجاوز بذلك ما يجب أن تكون عليه كقيم إلى مبررات للدونية، والخروج عن النظام، وعن المتعارف والفطرة.

- من الأنساق الدينية الخفية في المجتمع والتي فضحتها الرواية، اتخاذ الدين أداة ومطية للتنمويه؛ أين يظهر الكثير التمسك بالطقوس الظاهرة والعبادات، واستغلال

(1) بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، تقديم محمود طرشونة، المغاربة للطباعة والنشر والإشهار، تونس، 1999، ص 637.

(2) سمير قسيبي: تصريح بضياح، ص 86.

التصوف لإخفاء نسق النفاق والممارسة غير السوية.

- من جهة أخرى، تكشف الرواية عن كثير من مظاهر الغلو والتطرف في جانب التدين، ومنها أنساق البحث في جدليات القدر والتنبؤ بالمستقبل.

- يكشف الروائي عن مضمهر أنساق السياسة وخبايا السلطة، وذلك من خلال اتخاذ السخرية أداة سردية في تصوير هيمنتها وتهميش المواطن وإقصائه. وربما اتخذ ذلك الأسلوب المتهكم، دراية منه لقوة تأثيره فنيا وواقعيا.

- فضحت الرواية كذلك أنساقا اجتماعية كثيرة، تحيط بثنائية الأنثى والذكر، تجلت أكثر في مفارقات الفحولة كعلامة ثقافية ذات منظورين: الفحولة البيولوجية، الفحولة الرمزية؛ والتي تدل على القوة والسيطرة. وبذلك يتم تهيمش الآخر (المرأة/ الرجل المتأنت)؛ لأن النظام الثقافي العربي يمنح الرجل صفة الفحولة وصفات الرفعة الطبقية.

- تكشف الرواية عن التباين الجنوسي بين الذكر والأنثى؛ حيث يكرس ثقافة هيمنة الفحل، واختزال الأنثى في البعد الجنسي والجسدي؛ لذلك يتخذ ذريعة للتسلط، والتحرش واغتصاب الأنوثة.

- تجلت في الرواية جرأة توظيف تابو المثلية لتعرية الممارسات اللاأخلاقية، والكشف عن الجوانب الخفية في هذا النسق. وقد كان مصدرها النزوات العاطفية واختلال التوازن الشعوري البيولوجي، أو القمع الذكوري.

المراجع:

المراجع العربية:

1- إبراهيم آيت المكي، الصورة وإنتاج المعنى بحث في سيميائيات الأنساق البصرية، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2023.

2- أحمد علواني، الجسد بين المتخيل السردى والنسق الثقافى، ط1، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا- سبرباي، 2019.

3- آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية -دراسة جندرية -، ط1، دار المدار الإسلامى، 2007.

- 4- بوشوشة بن جمعة، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، تقديم محمود طرشونة، المغربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، 1999.
- 5- جميل حمداوي، نحو نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الأنساق المتعددة)، ط1، المغرب، 2006.
- 6- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990.
- 7- رايك ثيودور، الدافع الجنسي، ثائر ذيب، ط1، دار الحوار اللادقية، سورية، 1992.
- 8- سمير الخليل، الأنساق الثقافية في الخطاب الصوفي كسر النمط الكتابي والعنى الثقافي، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، 2024.
- 9- سمير قسيبي، رواية تصريح بضياح، ط1، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة- الجزائر، 2010.
- 10- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي – بيروت، 2005.
- 11- لخضر بوخال، النقد الثقافي محاضرات وتطبيقات، دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة جيغل – الجزائر، 2022.
- 12- لهوة الوليد، خطاب الأنساق الثقافية في رواية قواعد العشق الأربعون لإليف شافاق، ط1، دار الأيام للنشر وتوزيع، عمان، 2018.
- 13- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ط9، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
- 14- مي غصوب وإيما سنكليريوب، الرجولة المتخيلة الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث، ط1، دار الساقى بيروت، لبنان، 2002.
- 15- حسام مطر، نظرية للتدين في اختبارات الدين بوصفه تجربة وهوية، مجلة جامعة المعارف - لبنان، ع9، 2023.
- 16- جميل حمداوي، مقالة النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، متاح على موقع: <https://www.diwanalarab.com>، 2025/08/21.

- 17- سعيد بنكراد، النص السردي نحو سيميائيات للإيدلوجيا، دار الأمان، المغرب، 1996، متاح على موقع: <http://saidbengrad.free.fr/ouv/tn/chap3.htm> ، 07 /17 ، 2025.
- 18- سميرة الكنوسي، بلاغة السخرية في المثل الشعبي المغربي، متاح على موقع: https://www.aljabriabed.net/n35_09samlra.htm، تاريخ: 2025/07/27.